السلفية منهج الإسلام .. وليست حزب تفرق وفساد

الدكتور عبد المعز الدمرواش البحيري

السلفية اسم جامع لمنهج علمي تربوي يدعو إلى فهم الكتاب والسنة، ويأخذ بنهج وعمل رسول الله محمد ﷺ وصحابته رضي الله عنهم والتابعين وأتباع التابعين؛ باعتباره يمثل منهج الإسلام الصحيح، ويبتعد عن كل المدخلات الغريبة عن روح الإسلام وتعاليمه، والتمسك بما نقل عن السلف الصالح، وهي تمثل العقيدة الصحيحة والمنهج السليم في مقابلة الفرق الإسلامية الأخرى، التي انحرفت عن الصراط المستقيم.

لا يخفى على الباحثين: إن السلفية تطلق، ويراد بها أحد المعنيين:

الأول: مرحلة تاريخية معينة تختص بأهل القرون الثلاثة المفضلة، لقوله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[(١)]، وهذه الحقبة التاريخية لا يصح الانتساب إليها؛ لانتهائها مدتها بموت رجالها.[(٢)]

والثاني: الطريقة التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ومن تبعهم بإحسان من التمسك بالكتاب والسنة وتقديمهما على ما سواهما، والعمل بهما على مقتضى فهم السلف الصالح، والمراد بهم: الصحابة والتابعون وأتباعهم من أئمة الهدى ومصابيح الدجى، الذين اتفقت الأمة على إمامتهم وعدالتهم، وتلقى المسلمون كلامهم بالرضا والقبول، دون أهل الأهواء والبدع ممن رمي ببدعة أو شهر بلقب غير مرضي، مثل: الخوارج والروافض والمعتزلة والجبرية وسائر الفرق الضالة. وهي بهذا الإطلاق تعد منهاجًا باقيًا إلى قيام الساعة، ويجب الانتساب إليه والتزام شروطه وقواعده، فالسلفيون هم السائرون على نهجهم المقتفون أثرهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لقوله ﷺ:

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).
(٢) وهذا ما حاول أن يتبناه الدكتور البوطي في كتابه: «السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي» ليطوي صفحة المنهج السلفي من الوجود. لكن علماء الدعوة السلفية كانوا لفريته بالمرصاد.

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[٣]، ومن هذا يتبين أن السلفية ليست دعوةً طائفيةً أو حزبيةً أو عرقيةً أو مذهبيةً ينزل فيها المتبوع منزلة المعصوم، ويتخذ سبيلاً لجعله دعوة يدعى إليها، ويوالى ويعادى عليها، وإنما تدعو السلفية إلى التمسك بوصية رسول الله ﷺ المتمثلة في الاعتصام بالكتاب والسنة وما اتفقت عليه الأمة، فهذه أصول معصومة دون ما سواها.

وهذا المنهج الرباني المتكامل ليس من الحزبية الضيقة التي فرقت الأمة وشتتت شملها، وإنما هو الإسلام المصفى، والطريق القويم القاصد الموصل إلى الله، به بعث الله رسله، وأنزل به كتبه، وهو الطريق البينة معالمه، المعصومة أصوله، المأمونة عواقبه؛ أما السبل الأخرى؛ فطرقها مسدودة، وأبوابها مغلقة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خط لنا رسول الله ﷺ خطا ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطًا عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[٤].

وعليه يدرك العاقل أنه ليس من الإسلام تكوين أحزاب متصارعة ومتناحرة: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، فقد ذم الله التحزب والتفرق في آيات منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وإنما الإسلام حزب واحد مفلح بنص القرآن، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وأهل الفلاح هم الذين جعل الله لهم لسان صدق في العالمين، ومقام إحسان في العليين، فساروا على سبيل الرشاد الذي تركنا عليه المصطفى ﷺ الموصل إلى دار الجنان، بين لا اعوجاج فيه ولا انحراف قال ﷺ: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك»[٥].

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٠).

(٤) أخرجه الدارمي (٢٠٨)، وابن حبان (٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣٢٤١)، وأحمد (٤١٤٢)، وصححه أحمد شاكر في «شرح المسند» (٦/ ٨٩)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (١٦٦).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وحسنه المنذري في

والله سبحانه وتعالى إذ سمى في كتابه الكريم الرعيل الأول بـ«مسلمين»؛ لأن هذه التسمية جاءت مطابقةً لما كانوا عليه من التزامهم بالإسلام المصفى عقيدةً وشريعةً، فلم يكونوا بحاجة إلى تسمية خاصة إلا ما سماهم الله به تمييزًا لهم عما كان موجودًا في زمانهم من جنس أهل الكفر والضلال، لكن ما أحدثه الناس بعدهم في الإسلام من حوادث وبدع وغيرها مما ليس منه، سلكوا بها طرق الزيغ والضلال، فتفرق بهم عن سبيل الحق وصراطه المستقيم، فاقتضى الحال ودعت الحاجة إلى تسمية مطابقة لما وصف به النبي ﷺ الفرقة الناجية بقوله: «ما أنا عليه وأصحابي»[٦]، ومتميزة عن سبل أهل الأهواء والبدع ليستبين أهل الهدى من أهل الضلال. فكان معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]؛ إنما هو الإسلام الذي شرعه الله لعباده مجردًا عن الشركيات والبدعيات، وخاليًا من الحوادث والمنكرات في العقيدة والمنهج، ذلك الإسلام الذي تنتسب إليه السلفية وتلتزم عقيدته وشريعته وتؤسس دعوتها عليه، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا عيب على من أظهر مذهب السلف وانتسب إليه واعتزى إليه، بل يجب قبول ذلك منه باتفاق، فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقًّا»[٧].

ولذلك لا يعاب التسمي بـ«السلفية» أو بـ«أهل السنة والجماعة» أو بـ«أهل الحديث» أو بـ«الفرقة الناجية» أو «الطائفة المنصورة»؛ لأنه اسم شرعي استعمله أئمة السلف وأطلقوه بحسب الموضوع إما في مقابلة «أهل الكلام والفلسفة» أو في مقابلة «المتصوفة والقبوريين والطرقيين والخرافيين» أو تطلق بالمعنى الشامل في مقابلة «أهل الأهواء والبدع» من الجهمية والرافضة والمعتزلة والخوارج والمرجئة وغيرهم. لذلك لما سئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أهل السنة؟ قال: «أهل السنة الذين ليس لهم لقب يعرفون به لا جهمي ولا قدري ولا رافضي»[٨]، ومراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن أهل السنة التزموا الأصل الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وبقوا متمسكين بوصيته ﷺ من غير انتساب إلى شخص أو جماعة، ومن هنا يعلم أن سبب التسمية إنما

«الترغيب والترهيب» (١/ ٤٧)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٣٧).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، قال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ٢٨٤) «أسانيدها جياد»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٤٣).

(٧) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية: (٤/ ١٤٩).

(٨) «الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء» لابن عبد البر (٣٥)، و«ترتيب المدارك» للقاضي عياض (١/ ١٧٢).

نشأ بعد الفتنة عند بداية ظهور الفرق الدينية ليتميز أهل الحق من أهل الباطل والضلال، وقد أشار ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى هذا المعنى بقوله: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم»(٩)، هذا الأمر الذي دعا العلماء الأثبات والأئمة الفحول إلى تجريد أنفسهم لترتيب الأصول العظمى والقواعد الكبرى للاتجاه السلفي، ومن ثم نسبته إلى السلف الصالح لحسم البدعة، وقطع طريق كل مبتدع. قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم»(١٠).

والسلفية؛ إذ تحارب البدع والتعصب المذهبي والتفرق إنما تتشدد في الحق والأخذ بعزائم الأمور والاستنان بالسنن وإحياء المهجورة منها، فهي تؤمن بأن الإسلام كله حق لا باطل فيه، وصدق لا كذب فيه، وجد لا هزل فيه، ولب لا قشور فيه، بل أحكام الشرع وهديه وأخلاقه وآدابه كلها من الإسلام سواء مبانيه وأركانه أو مظاهره، والله تعالى يأمرنا بخصال الإسلام جميعًا وينهانا عن سلوك طريق الشيطان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقد ذم الله تعالى بني إسرائيل الذين التزموا ببعض ما أمروا به دون البعض بقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ﴾ [البقرة: ٨٥]. والحكم المسبق على المعين بدخول النار والمنع من دخول الجنة بتركه للهدي الظاهري للإسلام ليس من عقيدة أهل السنة لكونه حكمًا عينيا استأثر الله به، لا يشاركه فيه غيره، وقد بين الله سبحانه وتعالى أن استحقاق الجنة ودخولها إنما يكمن في إخلاص العبادة لله سبحانه واتباع نبيه ﷺ، وقد ذم الله تعالى مقالة أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١-١١٢].

فالسلفية لا تهون من شأن السنة مهما كانت، فلا تهدر من الشرع شيئًا ولا تهمل أحكامه، بل تعمل على المحافظة على جميع

(٩) أخرجه مسلم في «مقدمة الصحيح» (١/ ٨).
(١٠) «الشريعة» للآجري (ص ٥٨).

شرعه: علمًا وعملاً ودعوةً قصد بيان الحق وإصلاح الفساد، وقد أخبر النبي ﷺ عن الغرباء: «الذين يصلحون إذا فسد الناس»[11].

والسلفية ليست بدعوة مفرقة، وإنما دعوة تهدف إلى وحدة المسلمين على التوحيد الخالص، والاجتماع على متابعة الرسول ﷺ والتزكية بالأخلاق الحسنة، والتحلي بالخصال الحميدة، والصدع بالحق وبيانه بالحجة والبرهان، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، فقد كان من نتائج المنهج السلفي: اتحاد كلمة أهل السنة والجماعة بتوحيد ربهم، واجتماعهم باتباع نبيهم، واتفاقهم في مسائل الاعتقاد وأبوابه قولاً واحدًا لا يختلف مهما تباعدت عنهم الأمكنة واختلفت عنهم الأزمنة، ويتعاونون مع غيرهم بالتعاون الشرعي الأخوي المبني على البر والتقوى والمنضبط بالكتاب والحكمة.

هذا، والسلفية تتبع رسولها في الصدع بكلمة الحق ودعوة الناس إلى الدين الحق، قال تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، والبقاء في البيوت والمساجد من غير تعليم ولا دعوة إخلال ظاهر بواجب الأمانة وتبليغ رسالات الله، وإيصال الخير إلى الناس، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، فيجب على الداعية أن يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على علم ويقين وبرهان على نحو ما دعا إليه رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والعلم إذا لم يصحبه تصديق ولم يؤازره عمل وتقوى لا يسمى بصيرةً، فأهل البصيرة هم أولوا الألباب كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

ومن منطلق الدعوة إلى الإسلام المصفى من العوائد والبدع والمحدثات والمنكرات كان الانتساب إلى «أهل السنة والجماعة» أو «السلفية» عزًّا وشرفًا ورمزًا للافتخار وعلامةً على العدالة في الاعتقاد، خاصةً إذا تجسد بالعمل الصحيح المؤيد بالكتاب والسنة، لكونها منهج الإسلام في الوحدة

(١١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٠٥٦)، وأبو عمرو الداني في «الفتن» (١/٢٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٢٧٢).

والإصلاح والتربية، وإنما العيب والذم في مخالفة اعتقاد مذهب السلف الصالح، في أي أصل من الأصول، لذلك لم يكن الانتساب إلى السلف بدعةً لفظيةً أو اصطلاحًا كلاميا لكنه حقيقة شرعية ذات مدلول محدد.

وأخيرًا؛ فالسلف الصالح هم صفوة الأمة وخيرها، وأشد الناس فرحًا بسنة نبيهم ﷺ وأقواهم استشعارًا بنعمة الإسلام وهدايته التي من الله بها عليهم، متمثلين لأمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفرح بالعلم والإيمان والسنة دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإذا فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قدر محبته له ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له، ولا يحزنه فواته، فالفرح تابع للمحبة والرغبة»(١٢).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا.

(١٢) «مدارج السالكين» (٣/ ١٥٨).

ما هو عذرك عند الله؟

قال العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيا أيها المعرضون عن طلب العلم! ما هو عذركم عند الله، وأنتم في العافية تتمتعون؟! وماذا يمنعكم منه وأنتم في أرزاق ربكم ترتعون؟! أترضون لأنفسكم أن تكونوا كالبهائم السائمة؟!

أتختارون الهوى على الهدى والقلوب منكم ساهية هائمة؟! أتسلكون طرق الجهل وهي الطرق الواهية، وتدعون سبل الهدى وهي السبل الواضحة النافعة؟!

أترضى إذا قيل لك: من ربك وما دينك ومن نبيك لم تحر الجواب؟! وإذا قيل: كيف تصلي وتتعبد أجبت بغير الصواب؟! وكيف تبيع وتشتري وتعامل وأنت لم تعرف الحلال من الحرام؟! أما والله إنها حالةٌ لا يرضاها إلا أشباه الأنعام.

فكونوا -رحمكم الله- متعلمين، فإن لم تفعلوا فاحضروا مجالس العلم مستمعين ومستفيدين، واسألوا أهل العلم مسترشدين متبصرين، فإن لم تفعلوا وأعرضتم عن العلم بالكلية فقد هلكتم وكنتم من الخاسرين، أما علمتم: أن الاشتغال بالعلم من أجل العبادات، وأفضل الطاعات والقربات، وموجبٌ لرضى رب الأرض والسماوات، ومجلس علم تجلسه خيرٌ لك من الدنيا وما فيها، وفائدةٌ تستفيدها وتنتفع بها لا شيء يزنها ويساويها؟! فاتقوا الله عباد الله، واشتغلوا بما خلقتم له من معرفة الله وعبادته وسلوا ربكم أن يمدكم بتوفيقه ولطفه وإعانته. قال الله تعالى: [قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب].

«الفواكه الشهية في الخطب المنبرية» (رقم: ٦٦)